



على أحد مداخل مدينة حلب في شمال سوريا هناك لوحة مكتوب عليها (حلب أقدم مدينة في التاريخ)، إذ يتجاوز عمرها عشرة آلاف عام، وهي متحف تاريخي فريد، وقد أدرجتها اليونسكو على لائحة مواقع التراث العالمي، إذ فيها أكثر من 150 مَعْلِماً أثرياً من أهم الشواهد المعمارية التي تمثل مختلف الحضارات الإنسانية (الأمورية والحبشية والآرامية والأشورية والفارسية والهيلينية والرومانية والبيزنطية والإسلامية).

وتم تسجيل المدينة القديمة ضمن السجلات الأثرية، وُوضعت إشارة على صهائفها العقارية تبيّناً لعدم جواز هدمها أو تغيير معالمها أو مواصفاتها حتى من قبل بلديتها إلا بعدأخذ موافقة الجهات الأثرية العالمية.

وقد اختيرت مدينة حلب التاريجية لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لعام 2006.

في العصر العباسي برزت حلب كعاصمة للدولة الحمدانية، فلمَّا في بلاطها عدد من العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء (كالمتنبي وأبي فراس الحمداني) وعلماء اللغة (مثل ابن خالويه وابن جني).

وفي العصر العثماني كانت ثاني أهم مدينة في الإمبراطورية العثمانية بعد إسطنبول، إذ كانت تقع لولاية حلب عدّة مدن مثل عنتاب ومرعش وأضنة ومرسين وإسكندرن التي كانت ميناءها الرئيسي. وكانت السفارات الغربية في إسطنبول، أما الفنصليات فكانت في حلب.

وحلب اليوم أكبر المدن السورية من حيث عدد السكان، إذ يسكنها حوالي أربعة ملايين نسمة. وهي مركز محافظة حلب، فيكون عدد سكانها مع ريفها حوالي ستة ملايين نسمة، أي أكثر من ربع سكان سوريا.

وسكانها أعرق متنوعة تضم العرب (وهم الأكثريه) والأكراد والأرمن والشركس والتركمان وغيرهم، وتتجانس فيها الإثنيات والأديان منذ القدم، يتعايشون جميعاً في جو من الود والإخاء، يُعدُّ مضربياً للمثل في الشرق الأوسط.

وتحل اسمها هناك عدة روايات، والتفسير الأكثر قبولاً هو: أنه محرّف من اسمها باللغة الآرامية وهو (حلبا) التي تعني البياض نسبة إلى بياض تربتها وحجارتها. وتُشتهر حلب بقلعتها الفريدة وأبوابها وأسوقها ومساجدها ومدارس العلم فيها وصناعاتها، وتحمل تراثاً متميزاً في كافة المجالات العلمية والفنية والأدبية والثقافية.

وحلب هي العاصمة الاقتصادية لسوريا، إذ تعطي أكثر الناتج الإجمالي السوري. وهي مدينة تجارية منذ القدم، فهي في موقع استراتيجي على طريق الحرير التجاري الذي يربط الشرق بالغرب. وفيها أكبر سوقٍ شرقيٍ مسقوفٍ في العالم، بمساحةٍ تعادل 16 هكتاراً وبطولٍ يعادل 16 كيلومتراً، وقد شيدت معظم أجزائه في القرن الرابع عشر الميلادي، وسميت حسب أسماء الحرف والمهن المزاولة فيها، مثل سوق الصوف، سوق الصياغ، سوق الحدادين، سوق النحاسين، سوق النساء (المستلزمات النسائية)، وقس على ذلك.

ثم هناك خانات متواجدة حول الأسواق مازالت قائمة حتى الآن.

والخانات أبنية مخصصة لإقامة المسافرين وقوافل التجار، إضافة لكونها مكاناً لعرض تجارتهم وبيعها. وقد اشتهرت بواجهاتها المزينة بزخارف جميلةً ومداخلها القوسية الضخمة التي كانت تُغلق بأبواب خشبية مصفحة بالحديد والنحاس، وأكثر باحاتها مسقوفة بالقباب. ولكل بضاعة خان يرتبط اسمه بها، مثل خان الحرير وخان الزيت وخان البرغل وخان الصابون، أو قد يرتبط باسم صاحبها مثل خان القاضي وخان خيري بك وخان الوزير. وبعضاها عظيم الاتساع كخان الجُمُرك الذي يضمّ اثنين وخمسين مخزنًا، وسبعين غرفة، وسوقين مبنيين بالحجر المُهَنَّد، يصل إليهما الضوء من قببٍ عشر تعلوها، ومجموع دكاكينه ثلاثة وأربعمائة وأربعين، وإلى جانبها سببان ومسجد.

كل هذا في المدينة القديمة التي يحيط بها سور منيع صدّ عنها هجمات الغزاة، وهو يشكل دائرةً نصف قطرها خمسة كيلومترات، وله تسعه أبواب، مازال خمسة منها قائمة حتى اليوم.

وفي مركز المدينة القديمة تقع قلعة حلب الضخمة على تلة مرتفعة، مشرفةً بذلك على كافة أحياط المدينة القديمة. وتتعدد الطرز المعمارية في المدينة القديمة، إذ تجمع أنماطاً معمارية سلجوقيّة وبيزنطية ومملوكية وعثمانية.

أما الأحياء خارج سور المدينة القديمة فتجمع العديد من الطرز المعمارية الشرقية، والคลasicية الغربية، وحتى الصينية، وذلك بفضل مهارة الصناع في قطع الصخور من الحجر الأبيض الذي تُشتهر به حلب.

ومن معالم المدينة القديمة الجامع الأموي الكبير، الذي بناه الخليفة الأموي وليد بن عبد الملك عام 715م. وطرازه الحالي يعود لنور الدين زنكي الذي أعاد تشييده عام 1158م. لكنه تأذى بشدة أثناء الغزو المغولي عام 1260م، فتمت إعادة بنائه. والغرفة التجارية في حلب من أقدم غرف التجارة في الشرق الأوسط والعالم العربي، وقد أُنشئت عام 1885م.

وإضافة إلى التجارة فإن حلب مشهورة بالصناعة أيضاً. فمن صناعاتها القديمة، التي مازالت مشهورة بها، الحفر والنفخ على الزجاج، والصناعات النحاسية، ومشغولات الذهب والصياغة والأحجار الكريمة، وصناعة صابون الغار، وهو من أجود أنواع الصابون، وإنما زيت الزيتون حيث تكثر أشجار الزيتون في ريفها. ويقدر حجم الاستثمارات في مصانعها الحديثة

بعدة مليارات دولار، تم استثمارها في صناعات النسيج والملابس الجاهزة، والصناعات الكيميائية، والصناعات الدوائية والتجهيزات الطبية، والصناعات الغذائية، ودباغة الجلود وصناعة الأحذية، والصناعات الكهربائية المنزلية. وفيها أكثر من 50% من العمالة الصناعية السورية.

والمطبخ الحلبي يتميز بتنوع أطباقه اللذيذة، ويُقال عنها: حلب أم المحاشي والكبب. والكتاب الحلبي منتشر عبر العالم. وقد فاز مطبخها بجائزة التذوق من قبل أكاديمية الطبخ والتذوق العالمية عام 2007م. وتتميز أيضاً بصناعة الحلويات العربية التي تتضمن في الغالب الفستق الحلبي الشهير.

ويمر في حلب قطار الشرق السريع الذي ينطلق من أوربا عبر إسطانبول فحلب في بغداد أو بيروت وذلك منذ عام 1919م. ومنها ينطلق القطار إلى دمشق ضمن الخط الحديدي الحجازي الذي بدأ بإنشائه سنة 1900م وبدأ تشغيله سنة 1908م لتسهيل نقل الحجاج والمعتمرين إلى الحرمين الشريفين.

أما مطار حلب فقد تم إنشاؤه في بداية العشرينيات من القرن الماضي.

مدينة حلب هذه، لم تشفع لها كل هذه المعطيات أن تسلم من قصف طائرات الميغ، فامتزج هواها برائحة الدم المسقوط. لقد شهدنا على الشاشات احتراق السوق القديمة، وضرب المسجد الكبير، وتدمير العمارت، ووقوع الضحايا، وامتزاج الدماء بأرغفة الخبز، ونزوح السكان.

سألت صديقاً سورياً زار حلب مؤخراً عن حجم المأساة فقال لي: ليس عندي ما أضيفه إلى ما تراه على الشاشات سوى عبارة واحدة: ليس من رأى كمن سمع، فالخراب هائل، وأكثر من مليون ونصف يعيشون مشردين في حلب وريفها في أوضاع إنسانية بائسة، عدا عن الذين نزحوا إلى المدن الأخرى والدول المجاورة. وعندما حاولت التأكد من كلمة مليون ونصف، أجابني بأنه أطلع على قوائم إحدى المنظمات الإغاثية فرأى عدد الأسر المشردة في جداولها قد بلغ أكثر من ثلاثة ألف أسرة. وأضاف إن أهم ما يجب تأمينه لهم هو الماء والخبز وحليب الأطفال والبطانيات لاسيما مع دخول الشتاء القارس.

وقد قرأت ما كتبه جوناثان ستيل في صحيفة الجارديان اللندنية في الثامن والعشرين من أكتوبر: لقد وقعت حلب ضحية لأسوأ تخريب حصل لأي مدينة رئيسية في العالم منذ 1945م.

ويضيف بأن أكثر من ثلث سكانها صاروا مشردين. مؤكداً ما كتبه آخر: الأسرة باتت ثلاثة أثلاط: ثلث للموت، وثلث للسجن، وثلث لمخيمات اللاجئين.

إن هذه الجريمة بحق هذه المدينة لا مثيل لها سوى جريمة نيرون الذي أحرق روما في السنة الرابعة والستين الميلادية.

وتقول كتب التاريخ: وبينما كانت النيران تصاعد والأجساد تحرق وفي وسط صرخ الضحايا كان نيرون جالساً في برج مرتفع يتسللى بمنظر الحريق الذي خلب لهه، وبهذه آلته الطرب يغني أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة! واليوم لا حاجة لبرج مرتفع لأن الطاغية وهو في قصره محاط بعدد من الشاشات التي تنقل إليه ما يجري في أنحاء سوريا فيتسلى بمنظر القتلى والدمار، ربما لأنه يريد أن يدخل في مسابقة مع بول بوت، الزعيم الكمبودي الشيوعي الماوي الذي قتل حوالي مليونين من شعبه المسالم، أي ما يعادل خمس السكان، خلال فترة حكمه التي امتدت ثلاثة سنوات فقط.

المصدر: الاقتصادية الالكترونية

المصادر: